صلاح الدين

حياته العملية

الدور الاول

لو راقب الانسان أنه فى يد القدرة الألهية تصرفه كيف شاءت ، وأنه ولد الظروف ، تكونه المناسبات على ما تجرى عليه ، وأن ليس له فى نفسه حاضرها ومستقبلها أمر ما ، لما اختار لنفسه أن يكون هذا أو ذاك ، ولما أضاع وقته فى تفضيل طريق على طريق ، ولوجب عليه أن يعمل فيما هو فيه ، تاركا لتموجات الأيام وتقلبات الزمان تقرير حاله التى يكون عليها

إن فى تاريخ صلاح الدين لأكبر برهان على ما قدمنا . يقول ابن الأثير وغيره من مؤرخى العرب إن صلاح الدين جاء إلى مصر فى المرة الثالثة مع عمه شيركوه وهو كاره لمجيئه كل الكره ، وعللوا ذلك بما عللوا ؛ فمنهم من قال إنه خاف غدر المصريين وخيانتهم ؛ وإلى هؤلاء أسوق بعض اللوم على تهمتهم المصريين كافة بالخيانة ، وكان الأجدر بهم ، وهم لا يجهلون حالة الأمة المصرية إذ ذاك ، أن يقولوا بخيانة شاور لا بخيانة المصريين ؛ ولكن هي الأقلام تسير مفرّطة في الألفاظ ؛ فتوقع أمة بأسرها فى تهمة من أشنع التهم ، هي تهمة نكران الجميل والخيانة

والمعتدلون من هؤلاء المؤرخين يقولون بأن سبب امتناعه عن العودة إلى مصر شدة مالاقى من الحصار فى الأسكندرية فى المرة الثانية ؛ وعندى أن هؤلاء هم أكثر المؤرخين إنصافاً ، لأن الحصار حقيقة كان شاقاً كبيراً مؤلماً

ليس يعيب صلاحَ الدين امتناعُه عن مرافقة عمه فى المرة الثالثة ، فليس من المحتم عليه أن تكون سياسته كسياسة عمه شيركوه فيما يختص بمصر وفتحها ، فقد يكون له سياسة ترمى إلى غير هذه الجهة من الأقاليم الأسلامية الأخرى

ولقد اتخذ المؤرخون إقراره ببغضه لمجيئه وإحجامه أولا عن الحضور سبيلا إلى الطعن فى شجاعته وإقدامه وبسالته ، وقالوا من غير مسوغ ولا مبرر إن طباعه وأخلاقه إلى ذلك الوقت كانت طباعاً هادئة وأخلاقاً لينة

على أن سبب إبائه قد بالغ فيه المؤرخون كثيراً واتخذه نفر منهم مدعاة للطعن على مقدرته فى حياته الأولى ، وعماداً يستندون عليه فى وصف حالته قبل أن يظهر شأنه ؛ وقد كثرت المبالغات حتى تكاد تلمسها اليد ، فقالوا إنه كان في كل مرة يأبى الخروج إلى مصر ، ولست أرى أمامى برهاناً أقوى لدحض حجة هؤلاء من أن أذكّرهم بموقفه وهم بالقرب من إطفيخ فى المرة الثانية حينما انتصر لمن قال بالحرب ، وخالف من قال بالعودة من أمراء شيركوه

والمتتبع لسياسته بعد الاستيلاء على مصر ، ورغبته فى أن يكون حاكمها ، يعلم مقدار هذه المبالغات من الصحة

وعلى فرض أنه أبى المجئ لأى داع من الدواعى التى ذكرت ، فبأى شىء نفسر إلحاح عمه شيركوه عليه ، وتمسك نور الدين بوجوب سفره مع عمه ؟ إن قيل لنا إن تشبث نور الدين بمرافقة صلاح الدين لعمه يرجع إلى رغبة عمه نفسه ، وسلمنا بهذا جدلا دون أن نوجه نظرنا إلى العلاقات التى كانت بين صلاح الدين ونور الدين فيما مضى وقبل قيام هذه الحملات ، فبأى مبرر نبرر إلحاح شيركوه وهو عمه وأكثر الناس علماً بأحوال ابن أخيه ؟ أفلا يكون إلحاحه هذا حجة دامغة على كفاءته ومقدرته التي عرفت عنه ؟ وهلا كانت شدة التمسك برحيله راجعة إلى ما أظهره صلاح الدين فى الحملتين المتقدمتين من الكفاءة والدراية

ومهما يكن من تعليل المؤرخين لامتناعه عن الحضور في المرة الثالثة ، فقد كان فيها عزه ومجده وسؤدده وإنتصاره ، سواء أكان كارهاً أم راغباً ، بل وكان فيها إنتصار الشرق على الغرب وإيقاف السيل الجارف الذى كان ولا شك مهلكة الشرق بأسره ؛ وما كان صلاح الدين يحلم بملك مصر وهو بالشام ، بل وما كان من حقه أن يتطاول إلى هذا المركز السامى الذى أدركه بعد زمن قليل ؛ لكن هى الأيام تسير بالأنسان إلى حيث قدر له ؛ هذا مع ما نحفظه لصلاح الدين من المواهب الفطرية والذكاء النادر الذى ظهرت آثاره فى أعماله المختلفة

مات شيركوه وأقام له صلاح الدين العزاء ثلاثة أيام ، والخليفة الفاطمي هو وأمراؤه فى شغل شاغل ، يعرضون على بساط بحثهم من يليق للوزارة بعد شيركوه ، باحثين منقبين ؛ وأمراء نور الدين بمصر متنافسون

متسابقون إلى هذا المركز الكبير ، وصلاح الدين بعيد عن هؤلاء وهؤلاء قائم بمأتم عمه ، وما هي إلا كلمة الخليفة الفاطمي صدرت بتقليد صلاح الدين هـذا المركز العظيم ، وهنا قامت مرة أخرى قيامة المؤرخين واختلفوا اختلافهم فى كل حادث ذى شأن ، فلو لم يظهر صلاح الدين بما ظهر به ، ولو لم يكن من أمره ما كان ، لما تعرض المؤرخون لمسألة اختيار الخليفة له دون سواه لمركز الوزارة

يظن بعض المؤرخين أن الفواطم رأوا في صلاح الدين هدواً وسكينة ولينا ، وطمعوا فى أن يكون لهم من صغر سنه قوة فى إظهار شأنهم وإحكام أمرهم ، فيظهرون يوما ما عليه وعلى جنده ويخرجونهم من البلاد ؛ وفى قيام المؤامرة التى كشفها صلاح الدين فيما بعد ، والتى كان يقوم بهـا أمراء الفواطم أنفسهم تعضيد لهذا الرأى

رب قائل : كيف يستطيع الخليفة أن يولى صلاح الدين هذا المركز مع أن الخليفة لم يكن له من الأمر من شيء كما هو معروف ، والجواب على هذا سهل جداً إذا راعينا أن الخليفة في ذلك الوقت أراد أن يعتز بصلاح الدين لما رآه فيه من الحـكمة والرزانة والشـدة أيام وزارة عمه وقيامه بأعباء الأعمال . هذه الصفات حببته في الأمير الشاب فقدمه على غيره ؛ وعندى أن هـذا هو الذى يمكن الاعتـداد به والاعتماد عليه ، لأنه كما يظهر لى هو الرأى الموفق الذى يستطيع به الخليفة القضاء على التنافس القائم بين الأمراء المصريين ، وقد أودى بالبلاد كما تقدم

وغير هؤلاء يقولون إن الأمراء النورية أجمعوا أمرهم على إحلال

صلاح الدين محل عمه ، لقرابته له من جهة ، ولما قام به من الخدمات فى الأيام السالفة من جهة أخرى ؛ ولكن هذا القول يصح الطعن فيه بما ثبت أولا من قيام الفقيه عيسى الهكارى بتسكين ثائرة الأمراء الشامية الذين غضبوا عند إسناد مركز الوزارة إلى صلاح الدين ، وثانياً من عودة بعض هؤلاء الأمراء إلى الشام ، مظهرين عدم الرضى بالخدمة تحت سيطرة صلاح الدين بمصر

كل هذا يوضح لنا أن صلاح الدين كان له من المنزلة ما استطاع به أن يحوز هذا المركز السامى رغم كل معارض ومنافس ، ولم يكن اللقب الذي اختاره له القوم « الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب » قد أعطى له جزافاً من غير استحقاق ، بل قد ظهر أنه جدير به وبأكثر منه ، وإليك ما كتبه العاضد في طغرة (طرة) العهد بالوزارة له « هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، و حجته عند الله عليك ، فأوف بعهدك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ؛ ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة ، ولمن بقى بقربنا أعظم سلوة ؛ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » نقلا عن صبح الأعشى

استوزر وعمره ٣٢ سنة بعد أن دربته الحروب، وأخذ من دروسها أيام مخالطته لنور الدين وعمه شيركوه ما كان سبباً فى رفعته وعلو شأنه وإظهار أمره

قام صلاح الدين فرأى نفسه في مركز محوط بالفتن والقلاقل، شاذ

في بابه شذوذاً غريباً ، وليس حوله من الأمراء من ينصره ، فأحب أن يحوط نفسه بسياج من أهله وذويه ، فأرسل في طلبهم فجاؤا ، ولما استقر ركبهم في ساحته ، وما استقر إلا بعد حصار دمياط ، كما يقول ابن شداد — « سلك مع أبيه — كما يقول ابن شداد — من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه ، وقال : يا ولدي ، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له ، ولا ينبغي أن يغيّر موقع السعادة ، فحكّمه في الخزائن كلها » وقام إخوته وذووه بمساعدته في مركزه الصعب الحرج ، فكانوا عصبته التي أعزته ونصرته في حياته القادمة كلها

رأى صلاح الدين من الحكمة أن يرضى المصريين حتى لا يقوى أمراؤهم بهم عليه ، فأغدق عليهم نعماً كثيرة ، وعاملهم بما وهبه الله من خلة الكرم ولطف الأخلاق ما حببهم فيه وقربهم إليه ؛ ورأى ألا يثير غضبهم ، وهم شيعة قضوا نحواً من قرنين تحت حكم الخلفاء الفاطميين الشيعيين ، وهو سني تابع لخليفة بغداد السني ، فأبقى حالهم في مذهبهم كما كان دون أن يبدل أو يغير ، فكان هذا داعياً آخر إلى حب الناس له ، والتفافهم حوله وعدم التعرض له ، أو التحرش به ، واكتفى بذكر اسم نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمي على المنابر

أضف إلى هذا ماناله من الشهرة في حرب الأفرنج بعد غزوهم دمياط : حيث قام بعد ردهم لحاربهم في غزة وغيرها ، واستولى على مدينة العقبة ، وهي مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين خاصة والمسلمين عامة إلى مكة ؛ فكان هذا النصر العظيم والفتح المبين وتأمين طريق

obeikandl.com

حجاج المسلمين حببه إلى المصريين كثيراً ، فأخذوا منذ ذلك الحين يخلعون غيرتهم وحسدهم ، ويتركون تمسكهم بمذهبهم الشيعي ، فانضموا إلى إخوانهم السنيين ، وراء راية صلاح الدين ، يقاتلون عدو الله وعدوهم جميعاً ؛ وما أظهره صلاح الدين من القوة والشجاعة والحزم فى صد هجمات الأفرنج في حصار دمياط ، وما قام به فى تلك الغارات على بلاد الأفرنج ، جعل القوم يعترفون له بالقيادة عليهم ؛ وقد رأى العامة فيه حامياً لهم قوياً ، ومدافعاً عنهم شجاعاً باسلا ، وعلموا أن خطر الأفرنج الذى كان يهددهم على الدوام قد زال بفضل جهاد هذا البطل ، فازدادوا تعلقاً به ، وحباً له ، فثبتت قدمه من ذلك الحين ، وأصبح سيد مصر كلها ، وصاروا لا يحقدون عليه إذا هو ولى بعض خواصه وأقاربه المناصب المختلفة

ولم يكن حرج مركزه من جهة نور الدين بأقل منه من جهة المصريين ، فاتخذ الحيطة لذلك ، فلم يحدث أى حدث من شأنه أن يوغر صدر نور الدين فيظن به الظنون ، فقوى بذلك مركزه من الجهتين جميعاً . على أنه لم يأل جهداً فى جمع كلمة المصريين ، وإرضاء الخليفة الفاطمي ، ليكونوا له عدة يتقى بها شر نور الدين ، إذا ثارت ثائرته لسبب من الأسباب

رأى صلاح الدين فى أسارير وجوه أمراء المصريين علامات الحقد والحسد ، وأحس أن نيران الفتن والخيانة تتأجج في القصر ، وشررها يتطاير إلى حد بعيد يكاد يهدم بنيانه في مصر من أساسه ، وما هو إلا أن دبر مؤتمن الخلافة الخصى حيلة للقضاء بها على صلاح الدين ، فكتب إلى الأفرنج بالزحف على مصر ، حتى إذا وصلوا وخرج إليهم صلاح الدين ،

قام مؤتمن الخلافة بجموعه ، واقتفى أثره ، فيقع بين نارين ، وفى هذا القضاء المبرم والهلاك كله

كتب مؤتمن الخلافة كتاباً ووضعه داخل نعل جديدة وأعطاها إلى رجل من رجالاته ليذهب بها إلى الأفرنج ، فوقعت النعل فى يد أحد أتباع صلاح الدين ، وأوصلها إليه ، فعلم الحقيقة لكنه لم يظهرها ، ولم ينتقم من مؤتمن الخلافة حالا ، بأن يقتله مثلا ، مخافة أن تثور ثائرة الناس عليه وهو لا يزال يرى أن مركزه غير ثابت ، فما زال يمهله ويطاوله حتى خرج ذلك المؤتمن الخائن يوماً إلى قصر له خارج القاهرة ، فأرسل إليه صلاح الدين من قتله ؛ وعند ذلك قام جند الخليفة السودانيون ، وكانوا حوالى خمسين ألف ، وهم الذين يقول فيهم العماد « ولما قُتل — أى مؤتمن الخلافة — هاج السودان وثاروا ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه »

يقول صاحب كتاب الكافى إن سبب قيام مؤتمن الخلافة أن صلاح الدين أخذ في إذلال العاضد والتضييق عليه فى جميع أموره ، واشتد عليه شدة بالغة ، فشكى العاضد من ذلك وأرسل إلى صلاح الدين يعاتبه ، فلم يلتفت إليه ، فكبر الأمر على من بالقصر ، واتفق مؤتمن الخلافة هو وجماعة من المصريين إلى آخر ما قدمنا

وعندى أن هذا يخالف سنّة صلاح الدين في معاملة الخليفة ، لأنه ما كانت قدمه قد ثبتت فى أرض مصر بعد ، وكان من واجبه ألا يثير غضب القوم ، حتى يصبح من القوة بحيث لا تزعزعه عواصف كهذه ، تلك التى

لولا ما قام به أخوه شمس الدولة طوران شاه ، لما كان لصلاح الدين ما كان من فوز وظفر

أضف إلى ذلك أن صلاح الدين إلى هذا العهد لم يكن غيّر على عمال القصر شيئاً، فما استخلف عليه غير مؤتمن الخلافة ؛ وماغيّر فيهم وما بدل ، فكيف يبدأ بالتضييق على الخليفة ؟

وزد على هذا أن صاحب الكافي نفسه يقول في موضع آخر بعد ذلك عند قدوم الأفرنج إلى دمياط ما نصه « قال صلاح الدين : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إليّ مرة لمقام الأفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوي الثياب وغيرها » فلو كان الخليفة في ضيق لما استطاع أن يرسل شيئاً

ولا بد من ملاحظة شئ آخر وهو أن صلاح الدين لم يغير عمال القصر إلا بعد واقعة السودانيين فأقام عليه بهاء الدين قرقوش

ومهما يكن من الأمر فقد قام الجند السودان ، وثار ثائر الأجناد الصلاحية ، ووقعت الواقعة بين القصرين ودامت هناك يومين « ومن عجيب ما اتفق ـ كما يقول العماد ـ أن العاضد كان يتطلع من المنظرة ، يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا ، وقيل ذلك كان عن غير اختياره ، فأمر شمس الدولة الزراقين بأحراق منظرة العاضد ، فهمّ أحد الزراقين بذلك ، وإذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : دونكم العبيد الكلاب ، أخرجوهم من

بلادكم ؛ وكانت عزيمة السود مشتدة ، على زعم أن العاضد راضٍ بما يفعلون ، فلما سمعوا ذلك ضعفت عزائمهم ، وانحلت قواهم ، فانهزموا شر هزيمة .

قد يكون هذا صحيحاً فلحاكم بأمر الله الفاطمي قصة على هذا النحو في مثل هذا الموقف ؛ ولكن ذلك لا يمنع من دحض هذا ، لميل الخليفة إلى صلاح الدين من جهة ، ولأن صلاح الدين لم يكن يريد أن يثير عواطف الناس عليه من جهة أخرى ، ولأنه من جهة ثالثة كان يستطيع في مثل هذا الظرف أن يحظر على الخليفة الخروج إلى المنظرة

على أن الذي فت من قوى العبيد وبدد شملهم قيام صلاح الدين ورجاله بأحراق محلتهم التي كانت تعرف بالمنصورة بالقرب من باب زويله ، وفيها عيالهم وأولادهم ومتاعهم ، فلما سمعوا بالخبر ، انفرط عقدهم ، وذهبت ريحهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فأخذوا وقتلوا تقتيلا ؛ ومن بقي منهم طرد إلى الجيزة ومنها طوردوا إلى صعيد مصر إلى بلاد النوبة ، وما زال إخوة صلاح الدين يتابعونهم ويوقعون بهم النكال في كل مكان رحلوا إليه حتى أبادوهم عن آخرهم وأراحهم الله من شرهم

ولقد كانت مصيبة المدينة من هذه الحادثة فادحة ، إذ قد تحرقت وتهدمت وتخربت بيوت عدة ، وتعطلت الأعمال ، وزهقت الأنفس ، وهكذا كل ثورة من الثورات يخلفها الأذى والخراب

يقول استانلي لين پول إن بقية السودانيين ما زالوا يثيرون الفتن وإخوة صلاح الدين يتتبعونهم حتى أوصلهم طوران شاه وهو في أثرهم إلى نوبيا حيث استولى على مدينة إبريم بالقرب من كرسكو

obeikandl.com

وحتي فى سنة ١١٧٤ م ثار ثائر بقية السودانيين فى أسوان بقيادة كنز الدولة، فقام العادل أخو صلاح الدين وقاتلهم قتالا طويلا حتى تمكن من قتل عميدهم، وفي سنة ١١٧٦ م هبت ذوبعة أخرى ولكن قُضى عليها وأطفئ لهيبها وهى آخر الثورات التى سمع التاريخ بها عن السود فى مصر

هذا يدل على أن الوجه القبلى كان مسرحاً للثورات مدة ست سنوات، يعزو المؤرخون هبوبها إلى السودانين، ولكن الأمر الذى لا يشك فيه العقل ولا يتردد فيه الفكر هو أن السودانين ليسوا هم وحدهم الذين أثاروا هذه الفتن، بل كان لأعداء صلاح الدين من أمراء الفاطميين دخل كبير، ذلك لأنه أبعدهم عن الملك والسلطان، وأحل محلهم قومه ورجال بيته وبنى جلدته؛ وفى رأيي أن هؤلاء السودانين ما كانوا إلا آلة لهؤلاء في أطماعهم

على أنه ما كاد صلاح الدين ينتهى من طرد هؤلاء من القاهرة حتى قام الأفرنج يريدون دمياط، لعلمهم مقدار الخطر الذى ينجم عن امتلاك نور الدين مصر وتثبيت قدمه فيها، فأرادوا الاستيلاء على دمياط حتى تكون مركزهم في البلاد، ومنها يعدون الحملات على مصر كلها. قام ملك القدس يطلب النجدة من الأغريق الذين كانوا يتخوفون من نور الدين إذا تم له امتلاك الشام، فيغير على آسيا الصغرى، ثم يتخطى إلى ملكهم، فأرادوا أن يوجهوا نظره نحو جهة أخرى، فقاموا بما طُلب منهم من المساعدة ضده

بيد أن أملريك لم ينتظر وصول المدد الأغريقى إليه، فأسرع فى الذهاب إلى دمياط، وقد أعد صلاح الدين فيها كل معدات الحرب وأدوات

المقاومة ، حتى تمكن المصريون من صد هجمات هؤلاء المغيرين ، وانكسر الأفرنج أشنع كسرة ، ووصل الأسطول الأغريقى الشواطئ المصرية بعد ما قاسى من العناء ما قاسى أثناء الطريق ، فعاد الكل بالخيبة والندامة ، ولم يقع للأفرنج فشل كما وقع لهم فى هذه المرة

ويقول استانلى لين پول إن الطبيعة ساعدت المصريين ، فلقد أمطرت السماء حتى ملأت مجرى النيل ، ففاض على السهل حيث تقيم الأفرنج فأغرقهم ، كما هبت الزوابع فاقتلعت خيامهم ، فرماهم المحصورون بالحجارة أثناء تخبطهم فى مقاومة الطبيعة

ومهما يكن من الأمر فقد ارتد أملريك خائباً بعد أن أقام بأرض مصر نحواً من خمسين يوماً قاسى فيها هو وجنوده ما قاسى من الجوع والألم ، وكان مثلهم فى غزوتهم هذه مثل النعامة ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين

ويقول استانلى « وليتم الله نصره على المسلمين ، قامت ذوبعة بحرية شديدة حطمت ما قد بقى من أسطول الأغريق ، فمات كل من كان عليه ، وطفت جثثهم على شواطئ البلاد التى كانوا قد جاؤا لفتحها »

نعم قد كان للأفرنج عذر فى حملتهم هذه ليكسروا هذا القيد الصلب ، فأن الأسطول المصرى تمكن من قطع كل صلة بحرية بين القدس وأوروبا ، ومنع جماعات الحجاج المسيحيين من أداء الفريضة ، وهم الذين كان يستعين بهم ملوك القدس ، فكان فى امتلاك نور الدين مصر قطع كل مدد يجيء إلى الأفرنج من هذه الناحية

وقام نور الدين فى هذا العراك العنيف بأرسال الأمداد إلى صلاح الدين

كما قام بشن الغارات على حدود فلسطين ، ليخفف الضغط على صلاح الدين ، وأصبح مركز الأفرنج بعد هذه الخيبة حرجاً ، حتى ارتضوا لأنفسهم الدفاع بدل الهجوم

بهذا النصر الذي أحرزه صلاح الدين استطاع أن يأخذ جيشاً يغزو به بلاد فلسطين من جهاتها الجنوبية ، قاصدا بذلك إزالة الرعب الذى كان يستولى على قلوب الجند من نزال الأفرنج ، حتى يعدهم بعد ذلك للجلاد والطعان القادم الذى شعر به من أول يوم استولى فيه على وزارة مصر ، ولأنه كان شديد الرغبة فى طرد الأفرنج من بيت الله المقدس . عاد من غزواته الصغيرة ظافراً منتصراً مستولياً على مدينة العقبة كما أسلفنا ، فالتف المصريون حوله وعظم فى أعينهم أمره

وفى غزاوته هذه يقول عمارة الشاعر من قصيدة

غزوا عقر دار المشركين بغزة ... جهاراً وطرف الشرك حزنان مطرقُ

وزاروا مصلى عسقلان بأرعن ... يفيض إناء البر منه ويفهق

وكانت على ما شاهد الناس قبلهم ... طرائق من شوك القنا ليس تطرق

وما عصمتهم منك إلا معاقل ... تأنوا على تحصينها وتأنقوا

جلبت لهم من سورة الحرب ما اتقى ... بوادره سور عليهم وخندق

وأخربت من أعمالهم كل عامر ... يمر به طيف الخيال فيغرق

وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق

وغزوك هذا سلم نحو فتحه ... قريباً وإلا رائد ومطرق

هو البيت إن تفتحه والله فاعل ... فما بعده باب من الشأم مغلق

ثبتت قدم صلاح الدين ، ورأى أن البلاد قد طهرت من الخوارج ، فأراد أن يتقدم خطوة أخرى في سبيل الاستقلال ؛ رأى أن البلاد شيعية ، وأن أهلها يبالغون فى التشيع ، فليس من شيء يحولهم عن مذهبهم هذا سوى نشر المذهب السنى ، وهو مذهبه ، فأسس مدرستين كبيرتين ، المدرسة الناصرية والمدرسة الكاملية ، حتى يحول الناس ويمهد البلاد للتغيير الذى يريده . ويقول ابن الأثير فى ذلك مانصه « كان بمصر دار للشحنة تسمي دار المعونه يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ، وأزال ما كان فيها من الظلم ، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضاً ؛ وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة ؛ وأقام قاضياً شافعيا في مصر فاستناب القضاة الشافعية فى جميع البلاد »

ولقد صادفت رغبته هذه إلحاح نور الدين عليه بتغيير خطبة يوم الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسى بدل الخليفة الفاطمي ، وما كان نور الدين وحده هو الذى يلح على صلاح الدين بذلك ، بل كان العالم الأسلامي السنى كله كذلك ؛ واليك ما قاله العماد مخاطبا صلاح الدين :

رد الخلافة عباسية ودع الـ ـدعى فيها يصادف شر منقلب
لاتقطعن ذنب الأفعي وتتركها فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب

نظر صلاح الدين إلى هذا الأمر بنظر الحازم البصير ، فلم يشأ أن يغير على الخليفة الفاطمى شيئاً حتى يتمكن هو من أمره أولا ، كما أنه رأى فى بقاء العاضد هذا ما يساعده على البقاء فى مركزه ، ورأى كذلك فى الخليفة العلوى القدرة على معاونته إن أوجبت الحال أن يعادى نور

الدين ، كما وجد فيه عونا له فى تنفيذ مأربه وهو الاستقلال عن نور الدين، فتباطأ فى الأمر ريثما يتم له نشر الدعوة السنّية من جهة ، ويتمكن من جذب جميع المصريين إلى جانبه من جهة أخرى

يقول ابن الأثير « وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه بمصر ، وأزال المخالفين له ،وضعف أمر الخليفة العاضد ، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين و نائبه قراقوش » إلى يقول « وكتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة المستضيئية ، فامتنع صلاح الدين ، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، لميلهم إلى العلويين ، وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ، ويريد بقاءهم ، خوفاً من نور الدين ، فأنه كان يخاف أن يدخل الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد أن يكون العاضد معه ، حتى إن قصده نور الدين ، إمتنع به وبأهل مصر عليه »

فرأى صلاح الدين من الحكمة انتظار الفرص الملائمه ، ورأى من الصواب عدم الظهور بمخالفة نور الدين ، فلما مرض الخليفة الفاطمي ، وكثر الالحاح من نور الدين . جمع قومه واستشارهم ، وكانت هذه عادته فى كل أمر جلل ، فقام من وسط القوم عالم أعجمى يقال له « الأمير العالم » وأخذ على عاتقه القيام بالأمر كله ، ثم أخذ سبيله إلى المسجد ، وخطب للخليفة العباسى ، فأمر صلاح الدين أتباعه بعدم إخبار الخليفة الفاطمى ، وقال لهم : ان عوفي فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته ، وقوبلت الخطبة بسكون وهدوء عجيب

« ولم ينتطح فيها عنزان » كما يقول ابن الأثير . غير أن بعض الروايات تقول إن الخليفة العاضد علم الخطبة لغيره فاغتم فمات . على أي وجه فسرها المؤرخون ، فقد توفى العاضد ، وبوفاته انقرضت دولة كانت لها يد كبيرة فى الحضارة الأسلامية ، فأن آثارها التى خلفتها تدل على مبلغ الرقى الذى وصلت إليه .

ولقد كان من سياسة صلاح الدين نحو الفاطميين أن يستبقيهم حتي يستعين بهم على نور الدين كما أسلفنا ، لأنه يعلم مقدار حرص نور الدين على ملكه من جهة ، وحتى لا يثير غضب المصريين من جهة أخرى ، لذلك تكدر لموت العاضد كدراً شديداً ، وذلك يفسر لنا سياسة اللين التي اتبعها مع الفواطم ، وهى سياسة جذب الناس إليه بالمعاملة الحسنة ، والعطايا الكثيرة ، وتجنب كل ما من شأنه أن يهيج عواطف القوم ، حتي اضطر كثيراً لمخالفة نور الدين فى قطع الخطبة عدة مرات وهو في أثناء سلوكه هذا يدنى منه أهله وذويه ، ويحلهم محل أنصار الفواطم فى أمور الدولة رويداً رويداً حتى لا يخرج القوم عليه ، فاستطاع فى النهاية أن يكون الأمر كله بيده وبأيدى أتباعه ، وأصبح بموت العاضد في المحرم سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١ م) سيد مصر المطلق ، ليس لأحد فيها كلمة سواه

قام صلاح الدين بتأتم العاضد ثلاثة أيام ، وأخرج الخليفة إلى قبره بكل حفاوة وإكرام ، لشدة حرصه فلا تأخذه العامة بالظنون ، ثم بعد ذلك أمر عامله قراقوش بفتح خزائن القصر ، ففرقها على قومه وأتباعه ، وبذل المال ولم يبخل به ، ولم يأخذ لنفسه من كل ما وجد شيئاً ، وفي ذلك

يقول الحكيم عبد المنعم الجليانى من قصيدة

ملك تقلد سلك الملك منتظما ... وقال المال هذا منك لى بدل
ففرق المال جمعاً للقلوب به ... وحسبه فيه إدراكٌ لما سألوا
إن الملوك الذين امتد أمرهم ... لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة فالأجناد لو علموا ... بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

أما الجوارى فقد أعتق البعض ووهب البعض الآخر وباع الباقى ، أما أهل العاضد ، وكانوا أحد عشر ولداً وأربع بنات وأربع زوجات ؛ وأقارب آخرون يربو عددهم على ١٥٢ ، فأنه أخرجهم من القصر ووضعهم في دار فسيحة ، وأمر عامله بتدبير ما يحتاجون إليه ، ووضع الرجال وحدهم والنساء وحدهن حتى لا يتناسلوا . ويقول بعضهم إن المعاملة التى عومل بها أتباع العاضد كانت معاملة مخجلة حتى أدى الحال إلى أن الجيران كانوا يرمون الخبز رمياً من فوق الأسطح لهم ؛ وفى اعتقادى أن هذا بعيد على صلاح الدين الذى كان يرى كل شئ بنفسه ، وبرهان ذلك قول استانلى « فكان مغدقاً عليهم النعم مصرحاً لهم بكل الملاذ إلا ما يدعوا إلى التناسل »

أما الكتب فقد كثرت روايات المؤرخين فيها ، فمنهم من يلوم صلاح الدين على عدم الاحتفاظ بها ويقولون إنه بدد من غير مبرر حضارة أمة نالت فيها شوطاً واسعاً ، ولو أنه احتفظ بها لكان منها للعالم الأسلامي مدنية وحضارة فائقة ، على أن هؤلاء يبالغون ، ناسين أو متناسين ما كان عليه القوم من التشيع والمغالاة فيه

أما صلاح الدين فأنه أحضر القاضى الفاضل وأمره باختيار ما هو صالح للأمة والدولة فيحتفظ به ، وما كان فيه التشيع فيحرقه ، وما فيه قليل فائدة يوزعه على الناس ، فتسلم منها القاضى الفاضل ١٢٠ ألف مجلد أما الباقى فباعه وأدخل ثمنه بيت المال.

تلك هى الحال التي قضى عليها صلاح الدين أيام وزارته فلما مات العاضد وأخلي قصره ، لم يرغب صلاح الدين في سكناه ، بل ظل فى بيت الوزارة ، دون أن يبهر نظره جمال القصر أو تأخذه حدائقه الغناء ، لأن هذا كله كان يخالف السذاجة التى كان يتحلى بها فى جميع أعماله وأحواله

رأي صلاح الدين مصر من غير قلعة تحميها من المغيرين ، بعد أن علم مقدار ما تؤديه القلاع فى المدن الشامية من الخدمات ،فقد تسلم المدينة دون قلعتها ، فيحتمي فيها المدافعون والأهالى ؛ وقد يكون لهذا أثر في شروط التسليم وتخفيف وطأة العدو المنتصر ، فعزم على بناء قلعة فى مصر

وجد أن عاصمة الديار المصرية عبارة عن العواصم التى اتخذها أمراء المسلمين من يوم أن دانت لهم البلاد ، فهي عبارة عن الفسطاط التي أحرقها شاور ، وأخذ أهلها يعيدون بناءها ، والعسكر وهي ما كانت تلى الاولى ، ثم القطائع التى ابتناها أحمد بن طولون ، ثم القاهرة المعزية ؛ فلم يشأ أن يضاعف مساحة البلد باضافة مبان جديدة إليه ، بل فضل إقامة سور حول هذه كلها ، وإنشاء قلعة تحمي ما بداخل هذا السور ؛ وقد اتخذ فيها مقاماً له ، وداراً لدواوين حكومته. كذلك رأى صلاح الدين أن فى بنائه هذه القلعة ملجأ يلجأ إليه هو وقومه إذا ثار ثائر المصريين

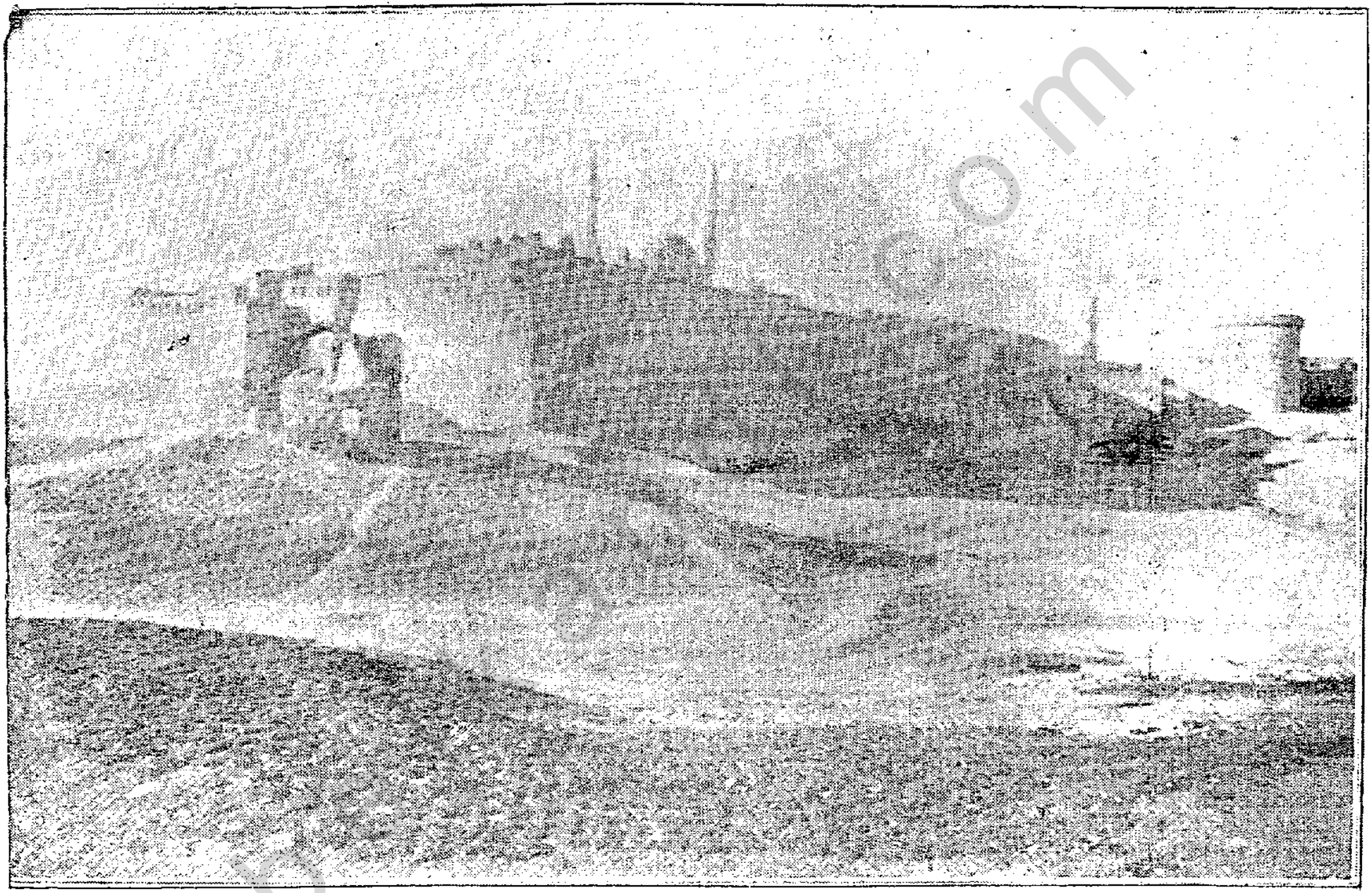

القلعة

عليهم، انتصاراً لبقايا الفاطميين، ولعله اعتقد أن سيكون له فيها درع تحميه نزال نور الدين إن تحرش به .

ومع أن من الراجح أن صلاح الدين كان يود لو استقل بمصر عن نور الدين، فأنه لم يجهر بشئ من ذلك بل تجنب كل ما من شأنه أن يشتم منه رائحة الخروج عليه، فأقام الخطبة له بمداسم الخليفة العباسى، وضرب النقود باسمه وأرسل له الهدايا من كنوز القصر، ذلك فعله حتى لا يرتاب نور الدين فى ولائه له؛ وصلاح الدين من جهة أخرى، يحيط نفسه بسياج الدفاع فاتخذ له من قومه وأهله حصناً، وأعد له جيشاً وتجنب ملاقاة سيده الأسمي نور الدين

لم يكن بد من أن يظهر العداء الكامن بين الرجلين، فأن نور الدين لم يبعث بجيوشه إلى مصر إلا لتكون ملكا خالصاً له، وصلاح الدين لم يتخذ لنفسه هذه المعاقل والحصون إلا ليستعد بها لما عساه أن يحدث، وقد كان كلا الرجلين يخادع صاحبه، ويتحين به الفرص، حتى جاء الوقت الذى لم يكن بد من أن يقلب كل منهما فيه لصاحبه ظهر المجن

لا شك فى أن أعداء صلاح الدين من أمراء الجيش الذين امتنعوا عن خدمته، وأبوا الأقامة معه فى مصر، قد بذلوا جهداً غير قليل فى تحريض نور الدين وإغرائه، وقد أفلحوا فيما حاولوا، فارتاب نور الدين فى أن نائبه في مصر إنما يتربص به الدوائر، وينتهز الفرص للخروج عليه

كانت الشوبك بفلسطين شجى فى حلق التجارة بين مصر والشام، فعزم صلاح الدين على غزوها والاستيلاء عليها، ولكنه ما كاد يبدأ في

ذلك حتى قفل راجعاً ، مع أن قلعتها كانت توشك أن تقع فى يده ، واعتذر لنور الدين بأن أهل مصر قد ثاروا عليه ؛ ومصدر ذلك فيما يقول جمهور المؤرخين أنه أحس بقدوم نور الدين ، فاتقاه ؛ فوغر لذلك صدر نور الدين وازمع غزو مصر

وصل الخبر إلى صلاح الدين ، فجمع أهل شوراه ، وقص عليهم القصص ؛ فلم ينبس أحدهم بكلمة ، وبعد هنيهة اشار أحدهم عليه بالقيام فى وجه نور الدين ، فتكلم والده نجم الدين أيوب مظهراً أن البلاد بلاد نور الدين ، وما الكل فيها إلا مماليكه وأتباعه ، ثم انفض المجلس على هذا ؛ أما نجم الدين فأخذ ولده صلاح الدين ولامه على إعلانه هذا للملا

بيد أن نور الدين قد شغله عن دخول مصر شواغل كثيرة فى بلاد الجزيرة ، فولى وجهه نحوها ، وانتظر الفرص الملائمة مرة أخرى

أما صلاح الدين فأنه وجّه همته نحو إيجاد مأوى يأوى إليه إن دهمه نور الدين وغلبه على أخذ مصر ، فأرسل أخاه طوران شاه إلى السودان يطارد بقايا السود من جهة ، ويكتب له تقريراً عن أحوال البلاد من جهة أخرى ، حتى يعلم قيمتها من الوجهة التى يريدها

وكانت نتيجة ما رأى أن البلاد السودانية لا تصلح أن تكون مأوى يأوى إليها . وعندى أن صلاح الدين لو أتيح له فتح السودان وضمه إلى القطر المصرى ، وكوّن أمبراطورية واحدة من منابع النيل إلى البحر الأبيض المتوسط ، وترك من نفسه إلى أمد ما حرب الأفرنج بالشام والأستيلاء على بيت المقدس ريثما يتم له الأمر فى وادى النيل ، وحول

فكرته وهمته نحو تأسيس أمبراطورية قوية ذات سلطان فى هذا الوادى ، لكان بهذا أدى خدمة جليلة للأمة الأسلامية والشرق ، أكبر أثراً وأخلد ذكرا من أن يولى وجهه شطر الشام وفلسطين

على أى حال فقد عاد نور الدين عن عزمه لما وصلته كتب صلاح الدين التى يقول فيها « يرسل المولى — أى نور الدين — نجابا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذني إليه ، وما ههنا من يمتنع » نقلا عن ابن الأثير

أراد نور الدين بعد زمن يسير أن يختبر حال صلاح الدين ، فأمره بالخروج لغزو الأفرنج بالكرك ، وهى إلى الشمال من الشوبك . وقيل إنهما اتفقا عقب الرحيل عن الشوبك على هذه الغزوة ، وحددا لهما اليوم الذى فيه يلتقيان بها ، وفي ذلك يقول ابن الأثير « وسبب ذلك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الأفرنج في العام الماضى ، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه ، أرسل يعتذر ، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين ، فاستقرت القاعدة بينهما أن صلاح الدين يخرج من مصر ، ويسير نور الدين من دمشق ، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه » فذهب صلاح الدين وحاصرها ، فلما بلغه قرب نور الدين ، خاف وأخافه أصحابه منه ، فعاد محتجاً هذه المرة بمرض والده نجم الدين

فلما وصل إلى مصر وجد والده قد هوى من جواده بالقرب من باب النصر ، وقضى بعد أيام قليلة ، فحزن عليه صلاح الدين حزنا شديداً وبموته فقد صلاح الدين أكبر عون وأخلص نصير

تألم نور الدين غاية التألم ، واعتقد أن صلاح الدين يحاول العمل منفرداً ، فعزم على تسيير جيش للأغارة به على مصر ، وعزل صلاح الدين ، وأخذ البلاد لنفسه ، فولى ابن أخيه على الشام وأرض الجزيرة ؛ ولكن المنية عاجلته ، فقضى قبل أن يقضى حاجته

وكان صلاح الدين منذ حين يعمل على ادخار المؤن وغيرها ، وتدريب الجيوش تحت أمرة والده ، وكان قد استولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس ، وتبين له أن هذه البلاد لا تصلح للدفاع ، إذ من الميسور مهاجمتها من البر والبحر ؛ لذلك ولى وجهه نحو بلاد اليمن ؛ وسبب ذلك أن عمارة اليمنى الشاعر المشهور المقيم بمصر أراد هو وجماعة من شيعة العلويين الخروج على صلاح الدين ، وانضم إليهم بعض من جند صلاح الدين نفسه واتفقوا على مكاتبة الأفرنج في الساحل وفي صقليه للوثوب على صلاح الدين ، وأخذ عمارة بما له من حسن الأسلوب فى شعره يؤثر فى طوران شاه أخى صلاح الدين حتى أغراه على غزو بلاد اليمن ؛ ومن قوله فى ذلك

أفاتح أرض النيل وهي عظيمة ... على كل راج فتحها ومؤمل
متى توقد النار التي أنت قادح ... بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين ... وصنعاء من حصن حصين ومعقد
وتخلق ملكا لا يحيل بفخره ... على أحد إلا على عزمك العلى

وقوله من أخرى

فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به ... إلا سواك وأور النار فى العلم

إلى غير ذلك من الاقوال التى تثير الهمم ، وقصده من هذا أن يرحل

طوران شاه من مصر فيبعد عن أخيه صلاح الدين الذى إذا قام لحرب القادمين من الأفرنج قام عمارة ومن معه بأحداث ثورة لا يتمكن صلاح الدين حينئذ من قمعها ، ويقع بين نارين نار الثائرين داخل البلاد ، ونار المهاجمين من الأفرنج ؛ غير أن الأمر قد تبين لصلاح الدين قبل وقوعه بسبب اختلاف المتآمرين فيما بينهم على من يكون الخليفة والوزير ، إذا تم لهم الأمر على ما يبتغون

أما طوران شاه فأنه سافر إلى اليمن واستولى عليها وعلى عدن ، وأقام ملكا هناك قوياً ، وأعاد الخطبة لبنى العباس بعد ما قطعها المتولى عليها من قبل

ولما وصل أمر المتآمرين إلى صلاح الدين ، أمر بهم فصلبوا ، ولما جئ بعمارة ليصلب ، قام القاضى الفاضل عبد الرحيم ، وكانت بينه وبين عمارة وحشة أيام الخليفة العاضد ؛ توسل القاضى الفاضل إلى صلاح الدين ليخلى سبيل عمارة ، فظن هذا شراً وقال « لا تصدق يا مولاى مايقول » فغضب القاضى عبد الرحيم ، وقال صلاح الدين « إنما كان يشفع فيك » فلما أخرج عمارة ليُصلب ، طلب أن يطاف به على مجلس القاضى الفاضل ، فأغلق هذا بابه عند ما رآه قادماً ، فقال عمارة في ذلك

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص هو العجب

وكأنى بعمارة وهو يصف إنساناً مصلوباً كان قد خرج على الصالح ابن رزيك ، وما وصف إلا نفسه حيث يقول

أراد علو مرتبة وقدر فأصبح فوق جذع وهو عال

ومُد على صليب الجذع منه يمينٌ لا تطول على الشمال
ونكّس رأسه لعتاب قلب دعاه إلى الغواية والضلال

وكان عمارة هذا شاعراً مجيداً يغالى فى التشيع للفواطم، وله فيهم أشعار كثيرة، من ذلك قوله من قصيدة طويلة فى نكبتهم وانقراض دولتهم

رميت يا دهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتها فى أكرم الدول
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما والله لا التحمت فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على

إلى أن يقول

مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل
خفت عنها بوجهى خوف منتقد من الأعادى ووجه الود لم يزل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت ركابكم وغدت مهجورة السبل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولى
أعتى وهدانى والذخيرة لى إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
والله لا حلت عن حبى لهم أبداً ما أخر الله لى فى مدة الأجل

كان القضاء على هذه المؤامرة فى ٦ ابريل سنة ١١٧٤ فانكمش إفرنج الشام لما عاموا من أمر فشلها والقضاء على رؤسائها ونفى أعضائها إلى الصعيد ورجعوا عن عزمهم، ووقفوا على حدود بلدهم موقف المدافعين

أما نور الدين فقد مات فى يوم الأربعاء ٢١ شوال سنة ٥٦٩ هـ (١٥ مايو سنة ١١٧٤م) فتنسم صلاح الدين نسيم الأمل والحياة، وقام يجد يخطو خطواته الواسعة نحو ما كانت تطمح إليه نفسه، فأنه بعد وفاة نور الدين، التى ما كان يحلم بها، تمكن من كسر أسطول صقلية، وهو الذى فاجأ الأسكندرية فى شوال المذكور، وهو الذى قد جاء عقب اتفاق المتآمرين ولم يعلم فشلهم؛ وفي هذا الشهر أيضاً مات الملك أموري ملك القدس، وخلفه ولده الصغير بلدوين الرابع الأبرص

بهذه الحوادث التى تلا بعضها بعضاً فى زمن متقارب جداً، زالت كل عقبة كانت تقوم فى وجه صلاح الدين، فأصبح دفعة واحدة سيداً للشرق، والقائد الوحيد لجميع المسلمين فيه، لا يناضله فى ميدان العمل القادم سوى أفراد قلائل، هم ولد نور الدين الصغير، وسيف الدين صاحب الموصل، وهو أكبر أفراد أسرة زنكى في ذلك الوقت، ثم سلطان سلاجقة الروم. هؤلاء هم البقية الباقية التى يصح أن تقاومه، ولكن ليس من بينهم واحد يعدله مقدرة وقوة. ولما كان يعتقد أن واجبه هو محاربة الأفرنج وطعنهم طعنة نجلاء تجليهم عن أرض المسلمين، فقد عمل على توحيد هذه القوى الأسلامية المختلفة بكل ما أوتى من قوة وحزم، فبدأ دور حياته القادم بتنفيذ هذه الخطة

تلك الحوادث التي مرت من يوم توليه وزارة مصر من سنة ٥٦٤ إلى سنة ٥٦٩ هـ (سنة ١١٦٩ - ١١٧٤ م) كونت السلسلة الأولى من حياته العملية؛ ومن تلك الحوادث نعلم مقدار ما قام به من التخلص من العبيد

وطردهم من القاهرة ، ولقد كانت ثورتهم من أشد الثورات خطراً عليه

كذلك فى هذه المدة استطاع أن يعطى درساً للأفرنج علمهم أن نار مطامعهم فى مصر بل فى الشرق قد انطفأت ، فأخذوا فى حياة الدفاع عن حدود بلادهم دون أن يجسروا على الخروج منها للهجوم ، كما كانت عادتهم من قبل

ثم انقرضت الخلافة الفاطمية دون أن يتأثر بانقراضها وذهاب أمرها أحد، اللهم إلا تلك الشيعة التى أرادت أن تقوم فقضى عليها القضاء المبرم

أما صلاح الدين نفسه فأنه ما زال يعمل بسكينة وهدوء ، حتى أنقذته المقادير من يد نور الدين ، الذى لو طال عمره قليلا لما سمعنا إلا تفريقاً في شمل المسلمين وحرباً بين الأمير وتابعه ، ذلك الذى ظل يخاطبه حتى مماته (الأمير الأسفهسلار وكذا الأمراء النورية في مصر يعملون كذا وكذا) إعلاناً منه أن صلاح الدين ليس إلا تابعه كأحد هؤلاء الأمراء الذين كانوا بمصر معه

ومهما يكن من الأمر فقد قام صلاح الدين فى هذا الدور من حياته العملية بكل ما مهد له السبيل للعمل فى الأيام التالية ، وأوجد لنفسه من النفوذ ما أصبح به سيد القوم فى مصر والشام وما والاهما

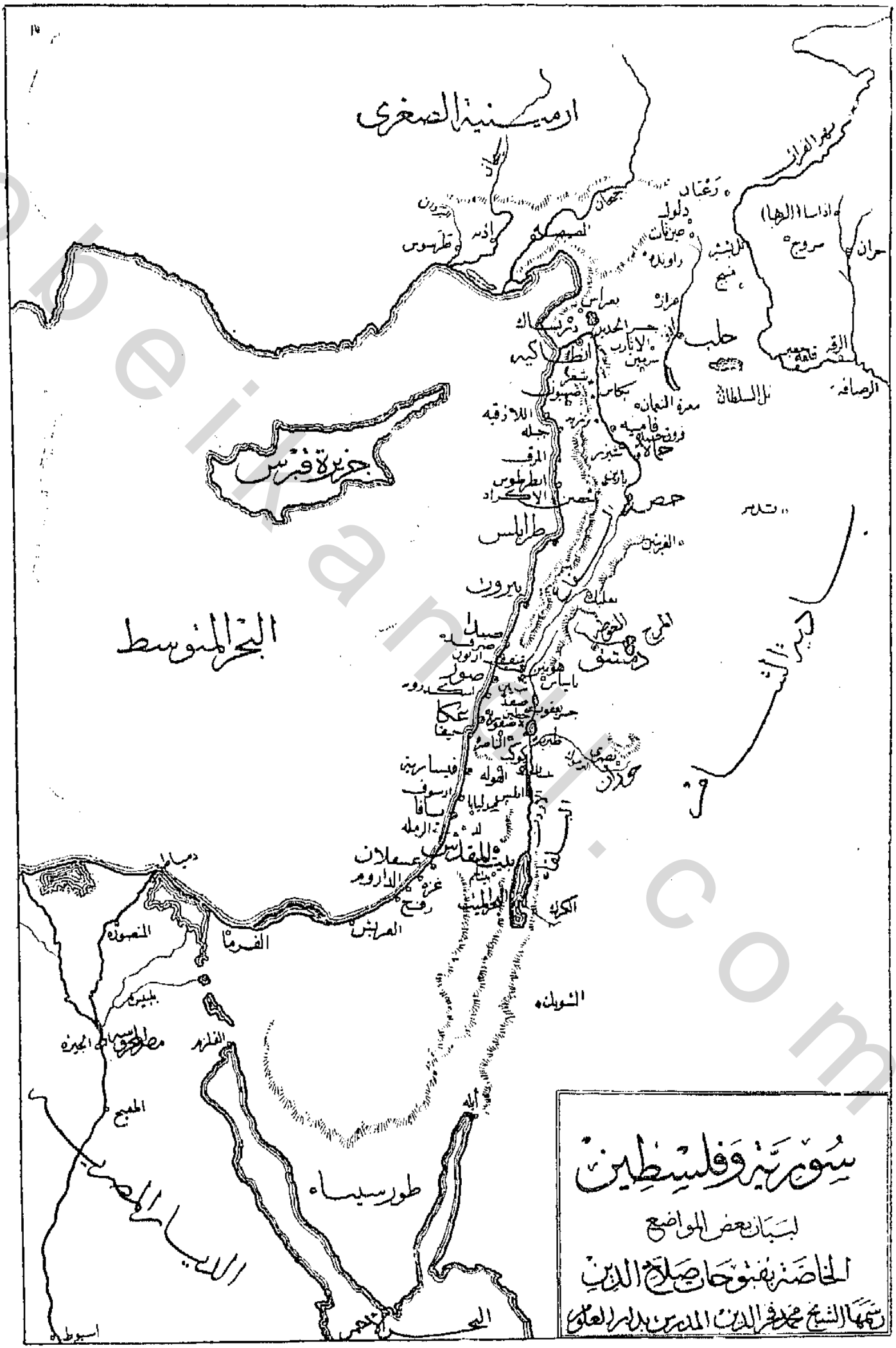

opeikandi.com